

المكتبة العربية

التعريف بكتاب الحيوان للجاحظ

لحضرة الأستاذ محمود محمد مصطفى

خريج دار العلوم

وأستاذ الأدب العربي بكلية اللغة العربية بالازهر

للجاحظ وهو العالم الجليل والأديب البارع الذي له في كل فن مجال وفي كل مقام مصال، كتب تربي على المائتين وله من بينها كتاب هو أدلها على فضله وأجمعها لمتنوع علمه. ذلك هو كتاب الحيوان وهو أكبر كتبه حجماً يقع في سبعة أجزاء ويشتمل على نحو ألف صفحة من القطع الكبير وهو مطبوع بمصر قام بالانفاق عليه الحاج محمد السياسي المغربي التاجر بمصر ومما جاء في أوله مما يشبه التعريف به والدلالة على ما فيه قول الجاحظ: «وهذا كتاب تستوى فيه رغبة الأمم وتتشابه فيه رغبة العرب والعجم لأنه وإن كان عربياً أعرباً، وإسلامياً جماعياً، فقد أخذ من طرف السياسة وجمع معرفة السماع، وعلم التجربة، وأشرك بين علم الكتاب والسنة، وبين وجدان الحس وإحساس الغريزة. ويشتهيه الفتيان كما يشتهيه الشيوخ ويشتهيه الفاتك كما يشتهيه الناسك. ويشتهيه اللاعب كما يشتهيه المجد ذو الحزم، ويشتهيه الغفيل كما يشتهيه الأديب، ويشتهيه الغني كما يشتهيه الفقير»

بدأ الجاحظ كتابه بمقدمة استغرقت طالع خمسين صفحة ذكر فيها

بعضاً من مؤلفاته وأنهى باللوم على العائنين لكتبه . ثم قسم العالم بما فيه من أجسام إلى جامد ونام . وجعل النامي النبات والحيوان . ثم ذكر أقسام البيان ثم استطرد إلى مدح الكتب فأطال في ذلك وأعاد وأبدى ، ثم تناول موضوع الخط ومقدار الحاجة إليه ، ثم خرج إلى الشعر قبل الإسلام ، ثم أعاد القول في شأن الكتب والترغيب في اصطناعها . ثم ذكر ما يعترى الانسان عند الخصاص ثم سرد طرق خصاء البهائم ثم ذكر الخصى من بني آدم وأنه أطول عمراً من الفحل ، ثم تناول الموضوع من الناحية الشرعية ثم رجع إلى القول في محاسن الخصى ومساويه .

ولا تظن أنه حين تناول البحث العلبي في كتابه بذكر الخصاء كف عن الاستطرد !! فهذا مالا يتصور في الجاحظ . فهو غير معفيك من مثل يشرحه أو حكمة ينسبها إلى قائلها أو كلمة يرويها عن صاحبها أو آية يستدل بها على ما يقول . وقد يستطرد من ذكر آية إلى أقوال المفسرين في القرآن فيقول

« كان أبو إسحق يقول لا تسترسلوا إلى كثير من المفسرين وإن نصبوا أنفسهم للعامة وأجابوا في كل مسألة فإن كثيراً منهم يقول بغير رواية وعلى غير أساس ، وكلما كان المفسر أغرب عندهم كان أحب إليهم ، فكيف أثق بتفسيرهم وأسكن إلى صوابهم وقد قالوا في قوله تعالى « وأن المساجد لله ، ليست المساجد التي نصلى فيها بل هي الجباه والأيدى والأرجل وكل ما يقع على الأرض عند سجودنا : وقالوا في قوله تعالى « أفلا ينظرون إلى الأبل كيف خلقت ، إنه ليس يعنى الجمال والنوق وإنما عنى السحاب وقالوا في قوله تعالى « ويل للظففين ، الويل واد في جهنم ثم قعدوا يصفون ذلك الوادى . ومعنى الويل في كلام العرب معروف . وقالوا أخطأ من قرأ قوله تعالى (عينا فيها تسمى سلسيلا) فوصل بعض هذه

بعض هذه الكلمة يبغيض وإنما هي سل سبيلا إليها يا محمد . فأن كان كما قالوا فإن معنى تسمى !!!
وقد قصر الجزأين الأول والثاني على الكلام عن الكلب والديك وعقد موازنات ومفاضلات بينهما فجعل للكلب صاحباً يحتاج له ويذكر محاسنه فيرد عليه صاحب الديك بمثل ما فعل وهكذا دواليك . ولعل ذلك الأسلوب كان متبعاً عندهم تختبر به قوة الحججة وشدة العارضة ، وبين ثبت كتبه تجد كتباً متناقضة فكتاب في « ذم النيد » وآخر في مدحه وكتاب في « ذم الكتاب » وغيره في مدحهم وسنورد عليك بعض هذا الجدل .

قال صاحب الديك وذكر الكلب فقال : من لؤمه أنه إذا أستمته أكلك وإن أجعته أنكرك ، ومن لؤمه اتباعه لمن أهانه ، وإلفه لمن أجاعه لأنه أجهل من أن يأنس بما يأنس به وأشره ، وأنهم وأحرص ، وأج من أن يذهب بمطعمه ما يذهب بمطامع السباع . ومن جهله أيضاً أنا لم نجده يحرس المحسنين إليه بنباحه وأربابه الذين ربوه ووأسوه إلا كراسته لمن عرفه ساعة واحدة بل لمن أذله وأجاعه وأعطشه بل ليس ذلك منه حراسة وإنما هو فيه من فضيل البذاءة أو الفحش وشدة التحرش والتسرع وقد قال الشاعر :

إذا تخازرت وما في من خزر ثم كسرت العين من غير عور
أبدا إذا بوديت من كلب ذكر أسود فراع تعوى في السحر
وإنما ذلك شكل من الجبن الذي يعترى نساء السفلة من الصخب ، والكلب جبان وفيه جرأة وقوم ، ولو كان شجاعاً وفيه بعض التهيّب كان أمثل . . .
وهو مع ذلك أسمع الخلق صوتاً وأحق الخلق يقظة ونوماً ، ينام النهار

كله على نفس الجادة وعلى مدق الحوافر ، وفي كل سوق وملتقى طريق ، وعلى سبيل الحمولة ، وقد سهر الليل كله بالصياح والصخب والنصب والتعب والغیظ والغضب ، وبالجمي والذهاب ، فتركه النوم على حسب حاجته إليه ، فإن وطئه دابة فأسوأ الخلق جزعا ، وألامه لؤما ، وأكثره نباحا وعواء . فإن سلم ولم تطأه دابة ولا إنسان فليست تتم له السلامة لأنه في كل حال متوقع للبلية ، ومتوقع للبلية في بلية . وقد كانت الطرق الخالية له مُعرضة ، وأصول الحيطان له مباحة

وبعد فإن كل خلق فارق أخلاق الناس فإنه مذموم ، والناس ينافون بالليل الذي جعله الله تعالى سكنا ، وينتشرون بالنهار الذي جعله الله تعالى للحاجات مسرعا

قال صاحب الكلب : لو شئنا أن نقول إن سهره خصلة ملوكية لقلنا ، ولو كان خلاف ذلك ألد لكنت الملوك به أولى . وأما الذي أشرتم إليه من النوم في الطرق الخالية وعبتموه به من نومه على شوارع الطرق والسكك العامرة ، وفي الأسواق الجامعة فكل امرئ أعلم ، ولولا أن الكلب يعلم ما يلقى من الأحداث والسفهاء وصبيان الكتاب من رضى عظامه بألواحهم إذا وجدوه نائما في طريق خال ، وليس بحضرته رجال يهابون ومشیخة يرحمون ويترجون السفهاء وأن ذلك لا يعذبه في مجامع الأسواق لقل خلافة عليك ، ولما رقد في الأسواق ، وعلى أن هذا الخلق إنما يعترى كلاب الحراس وهي التي في الأسواق مأواها ومنازلها .

ثم يبدأ الجزء الثالث بذكر الحمام فيقول : باب ذكر الحمام ومأوأوعها . الله عز وجل من ضروب المعرفة ومن الخصال المحمودة لتعرف بذلك حكمة الصانع وإتقانه وصنعة المدبر . وإن كنا قد أملناك بالجد . ثم يستمر في الاعتذار عن خلط جده بالهزل فيقول « على أي قد عزمت

والله الموفق أنى أوشح هذا الكتاب وأفضل أبوابه بنوادر من ضروب الشعر وضروب الأحاديث ، ليخرج قارىء هذا الكتاب من باب إلى باب ، ومن شكل إلى شكل ، فإني رأيت الأسماع تمل الألحان المطربة ، والأصوات الحسنة ، والأوتار الفصيحة إذا طال ذلك عليها ، وما ذلك إلا في طريق الراحة التي إذا طالت أورثت الغفلة . وإن كانت الأوائل قد سارت في صغار الكتب هذه السيرة كان هذا التدبير لما طال وكثر أصلح ، وما غايتنا إلا أن تستفيدوا خيرا . وقال أبو الدرداء « إني لأجمل نفسي ببعض الباطل كراهة أن أحمل عليها من الحق ما يملها » ثم يروى جملة فكاهات تضحك (كما يقول) كل ثكلان وإن تشدد ، وكل غضبان وإن أحرقه لهيب الغضب فيقول : حدثني المدائني قال تحول أبو عبد الله الكوفي اللحياني إلى الحرية فادعى أنه فقيه وظن أن ذلك يجوز لمكان لحيته وسمته ، وألقى على بابه البوارى ^(١) وجلس إليه الجيران فأتاه رجل فقال يا أبا عبد الله : رجل أدخل إصبعه في أنفه فخرج عليها شيء من الدم فأى شيء يصنع ؟ قال يحتجم . قال الرجل قعدت طيبيا أم فقيها ؟ !

وقال حدثني أبو الجهم قال ادعى شيخ عندنا أنه من كندة قبل أن ينظر في شيء من نسب كندة فقات له يوما وهو عندي ممن أنت يا فلان ؟ قال من كندة قلت من أيهم أنت ؟ قال : ليس هذا موضع الكلام عافاك الله .

وقال أخبرني محمد بن سليمان قال قال رجل من أهل الكوفة لرجل من أهل المدينة نحن أشد حبا لرسول الله منكم يا أهل المدينة ، قال المدني فما يبلغ من حبك لرسول الله قال وددت أنى وقته يوم أحد ولم يكن وقع عليه شيء مما حل به ، قال المدني أفعدك غير هذا قال وما يكون غير هذا

قال : وددت أنا أن أبا طالب كان آمن فسر به النبي وأنى كافر . وجعل يروى من مثل هذا ونحوه ثمانى صفحات ، ثم استطرده بقوله وسند كرم من نواذر الشعر جملة فإن تشطت لحفظها فإبها من أشعار المذاكرة . واستمر يروى من الشعر وطالت الرواية حتى لقد عقد فى هذا الاستطراد أبواب الباب صدق الفطن وجودة الفرسه وباب المديح بالجمال وغيره ، ثم إنه بعد نحو خمسين ورقة عاد إلى موضوع الحمام . وأظنك أيها القارئ الكريم قد لمست جانب الاستطراد فى تأليف الجاحظ . وليس معنى هذا أن الاستطراد قد اعتدى على الحقائق العلمية فإنه بعد هذا الاستطراد كتب فى الحمام وحده أكثر من خمسين صفحة فوصف أنواعه ، وذكر طبائعه ، فلم يترك فيه قولاً لقائل وفى هذا الكتاب يروى الجاحظ عن أرسطو ويسميه صاحب المنطق ، ولا أرسطو كتاب فى الحيوان نقله ابن البطريق وقد اطلع عليه الجاحظ وعرضه على فكره الثاقب وبصيرته النقادة . فلم يكن يخضع لقول أرسطو ويخضع بكونه فيلسوف اليونان الأشهر ، بل قد ناقشه فى عدة مواضع من الكتب زيف بها آراءه فقد روى رأيه فى أن إناث العصافير أطول أعماراً من ذكورها التى لا تعيش إلا سنة واحدة . فقال « والذين زعموا أن البغل إنما طال عمره لقلة السفاد والعصفور إنما قصر عمره لكثرة السفاد وغلبته ، لو قالوا بذلك على جهة الظن والتقريب لم يلدنهم أحد من العلماء ، والأمور المقربة غير الأمور الموجبة . فينبغى أن يعرفوا فخل ما بين الواجب والمقرب وفرق ما بين الدليل وشبه الدليل » ثم رد على من ادعى أن الليل لا يستقر أبداً ، فقال « يزعمون أن الليل لا يستقر أبداً وهذا غلط لأن الليل إنما يخلق لانه محصور فى قفص ، والذين عاينوا الليل والعصافير فى غير أوكارها وغير محصورة فى الأقفاص يعلمون فضل العصفور على الليل فى الحركة »

وانظر إلى كلامه عن الحيات يهاجم المزاعم الكاذبة والخرافات

الهائلة في بعض أنواع الحيات قال « والأعراب تقول في الأمثلة قولاً عجيباً ،
 يزعم أن الحية يقال لها الأصل لا تمر بشيء إلا احترق مع تهاويل كثيرة
 وأحاديث شنيعة وتزعم الفرس أن الأجد هاني أعظم من البعير ، وأنها لها
 سبعة رؤوس وربما لقيت أناساً فتبتلع من جهة كل فم ورأس إنساناً ، وهو
 من أحاديث الباعة والعجائز .

وقد زعم صاحب المنطق أنه قد ظهر حية لها رأسان فسألت أعرابياً
 عن ذلك فزعم أن ذلك حق ، فقلت فمن أي جهة الرأسين تسعى ومن أيهما
 تاكل فقال : أما السعى فلا سعى ولكنها تسعى إلى حاجتها بالتقلب كما
 تتقلب الصبيان على الرمل ، وأما الأكل فإنها تتغشى بقم وتتغذى بقم ،
 وأما العض فإنها تعض برأسها معاً . فاذا به أكذب البرية . والكتاب
 وإن كان علياً كثير القول فإنه مع ذلك جميل العبارة بارع الوصف فيه
 قطع كأنها قطع الرياض كسين زهرا ، منها وصفه للكتاب الذي جعله
 في المقدمة الطويلة التي سبقت أبوابه ولولا الاطالة وشهرة هذه القطعة
 لنقلنا منها بعضاً ، ولكني سأنقل قطعة لعلها خفيت في غضون الكتاب
 فلم تشتهر شهرة تلك ، قال في باب « القول في الحيات » « اللهم جنبنا
 التكلف وأعدنا من الخطل واحمنا من العجب بما يكون منا والثقة بما
 عندنا ، واجعلنا من المحسنين . حدثنا أبو جعفر المكفوف النحوي
 العنبري وأخوه روح الكاتب ورجال من بني العنبر ، أن عندهم في رمال
 بلعبر حية تصيد العصافير وصغار الطير بأعجب صيد . زعموا أنها إذا
 انتصف النهار واشتد الحر في رمال بلعبر وامتنعت الأرض على الخافي
 والمتعل ورمض الجندب غمست هذه الحية ذنبها في الرمل ثم انتصبت
 كأنها رمح مركز أو عود ثابت ، فيجئ الطائر الصغير أو الجرادة فإذا
 رأى عوداً قائماً وكره الوقوع على الرمل لشدة حره وقع على رأس الحية

على أنها عود ، فاذا وقع على رأسها قبضت عليه ، فإن كان جرادة أو جعلا أو بعض ما لا يشبعها مثله ابتلغته وبقيت على انتصابها ، وإن كان الواقع على رأسها طائراً يشبعها مثله أكلته وانصرفت ، وإن ذلك دأبها ما منع الرمل جانبه في الصيف والقيظ في انتصاف النهار والهجرة . وذلك أن الطائر لا يشك أن الحية عود وأنه سيقوم له مقام الجذل للحرباء إلى أن يسكن الحر ووهج الرمل . وفي هذا الحديث من العجب أن تكون هذه الحية تهتدي لمثل هذه الحيلة ، وفيه جهل الطائر بفرق ما بين الحيوان والعود وفيه قلة اكتراث الحية بالرمل الذي عاد كالجر وصلاح أن يكون ملة وموضعا للخبزة ، ثم يشتمل ذلك الرمل على ثلث الحية ساعات من النهار والرمل على هذه الصفة ، فهذه أعجوبة من أعاجيب ما في الحيات والكتاب كله على هذا النمط نقل عن صاحب المنطق واستنباط من كلام العرب ، واعتماد على رواياتهم ، وملاحظة دقيقة ، واختبار ذاتي واستطراد إلى مثل ما عرفت ، فكل هذا جعل الكتاب موسوعة علمية أدبية عديمة النظير .

